

## مجلس المرأة وزينتها في العصر الجاهلي

رسالة دكتوراه للدكتورة ليلى العمري

بإشراف: أ.د. حسين عطوان - الجامعة الأردنية

إن لهذا البحث وحدة عامة تشملها، وقسمات واضحة الدلالة تنتظمه... تقرّب بين ما تباعد من أبوابه وفصوله، وتجمع بين ما ترامي من صفحاته، فهو يدرس "مجلس المرأة وزينتها في العصر الجاهلي"، ويضم مقدمةً وتمهيداً وبابين، يحتوي كل باب على فصلين، الباب الأول لمجلس المرأة وحديثها، والباب الثاني لزينة المرأة وملابسها، ويتلو ذلك ملحق وهو معجم بألفاظ الزينة والملابس، ثم الخاتمة، فالمصادر والمراجع.

أما المقدمة فقد تحدثت عن الأسباب التي حذتْ بالباحثة إلى اختيار "مجلس المرأة وزينتها في العصر الجاهلي" موضوعاً للدراسة، وأجملت هذه الأسباب في اثنين، أولهما: أن عدداً من الباحثين تناولوا موضوع المرأة في العصر الجاهلي واستوفوا كثيراً من جوانب البحث، ولكن بعض هذه الجوانب - مثل موضوعنا - ما يزال يحتاج إلى فضل بيان ومزيد توضيح. وثانيهما: أن موضوع المرأة موضوع واسع يتناول جوانب كثيرة كتب في بعضها آخرون، ولذلك اختارت الباحثة موضوعاً محدداً لم يتناوله أحد من قبل تتاولاً مفصلاً في كتاب، وهو موضوع مجلس المرأة وزينتها وما يتفرع عنه هذا الموضوع من وصف لحديث المرأة في مجالسها، وملابسها وهي عنصر مهم من عناصر زينتها.

ويدرس البحث العلاقة بين المظهر الاجتماعي للمرأة ويتمثل في حديثها ومجالسها، والمظهر الحضاري من جهة ملابسته لبعض المطالب الحضارية مثل زينة المرأة، والمظهر

الأدبي من خلال تصوير الشعراء لكل ذلك ولما يدور في حديث المرأة من شعر، ويقدم صورة واضحة عن الموقع الحضاري للمرأة في المجتمعات الجاهلية المتعددة المتمثل في تقدير هذه المجتمعات لها.

وكان المصدر الأساسي الذي اعتمدت عليه هذه الدراسة هو الدواوين الشعرية وشروحها، وما تفرق من شعر الشعراء الجاهليين في المجموعات الشعرية، واستعانت بعدد من المصادر الأخرى مثل كتب الأدب العام واللغة والسيرة النبوية وكتب الطبقات والأنساب والكتب التاريخية والجغرافية.

وتحدثت في التمهيد عن مكانة المرأة في العصر الجاهلي واختلاف النظرة إليها في المجتمعات الجاهلية المتعددة، فأشارت إلى مكانتها في ميادين الحياة المختلفة: الأسرية، والاجتماعية، والاقتصادية، والأدبية والفنية، والحربية، والسياسية، وابتدأت بالحديث عن المرأة الحبيبة، التي كانت مصدر إلهام للشعراء فأفاضوا في وصف محاسنها والتشبيب بها، والنشوق إليها. أما المرأة في الأسرة فقد كانت تقوم على تربية أولادها وإرشادهم وتوجيههم، وتدبير شؤون أسرتها، ورعاية مصالح زوجها، ومما يدل على مكانتها في الأسرة أنها كانت تختار زوجها بنفسها، وتزوج نفسها من بعض الرجال أحياناً، وتختبر خاطبها وتوازن بينهم، وتطلب من زوجها أن يطلقها، بل كان بعض النساء يطلقن الرجال في الجاهلية.

وكانت تقوم بكثير من الأعمال التي تستدعيها البيئة من حولها وتحتاج إليها الأسرة، وقد بلغ من مكانتها في المجتمع الجاهلي أن تشترك في حلف مع الرجال لنصرة المظلوم، وأن تجبر الرجال من قبيلتها ومن غيرها.

وكانت تملك المال وتتمتع بحق التصرف فيه في الجود والتجارية، وتقول الشعر، وتقد الشعر، واحترف بعضهن الغناء وهن القيان، وكانت تخرج مع المقاتلين في الحروب لتحريضهم وتشجيعهم على الاستماتة في القتال، وتباشر الحرب بنفسها، وترأس زعامة الجيوش أحياناً، ووصلت إلى الملك وحكمت في كثير من البلاد.

وشابت هذه الصورة الكلية بعض الشوائب فقد كان بعض العرب يثدّون الأنثى، ويعتدون على حقوقها في الميراث، ويمنعونها الزواج ظلماً.

وعُقد الباب الأول لمجلس المرأة وحديثها، فتحدث في الفصل الأول منه عن مجلس المرأة الحرة والأمة، فقد تبين من العصر الجاهلي ومن الأخبار الأدبية والتاريخية أن المرأة كانت تَسْمَرُ مع الرجال فتتحدث إليهم ويتحدثون إليها، ويستشيرونها ويأخذون برأيها في القضايا التي تشكل عليهم. وقد كثرت في الشعر الجاهلي الألفاظ التي تدل على وجود الصاحب الذي يلزم المرأة ويحدثها ويجالسها من قبل: الخذن والخلم وزير نساء. وكثرت كذلك الإشارات التي تدل على مجالسة المرأة للرجل ولقائها به، أو اجتماعها بالنساء الأخريات في محيط الأسرة والمجتمع دون أن تجد في ذلك عاراً يلحق بها أو قيوداً تحدّ من حريتها وتحجبها عن الرجال. وترتب على ذلك أن كان للمرأة مجالس كثيرة تجتمع فيها مع الرجال مرة ومع النساء مرة أخرى، منها: مجالس المرأة الحبيبة، وهي مجالس غزلية جاءت من زيارات الشاعر ولقاءاته بمحبوبته وبصويحباتها أحياناً، ومن زياراتها له أيضاً. وكان الغرض من هذه المجالس الغزل بالمرأة واللهو بها والتمتع بجسدها، ولم يكن حديث الشعراء عن مجالسهم مع النساء حديثاً واحداً في مضمونه، فمنهم من اقتصر على تذكّر الأيام والليالي الماضية التي كانوا يلتقون بهن فيها، يكون عليها ويتحسرون على ذهابها، ومنهم من فصّل القول فيها وفي الأحداث التي تجري خلالها، وربما اتخذ بعضهم الأسلوب القصصي وسيلة للتعبير عن ذلك كالأعشى وامرئ القيس وجبران العود النميري.

ومن هذه المجالس: المجالس الثقافية للمرأة، فقد كانت المرأة تتصدر مجلسها للرأي والمشورة فكان يأتيها الرجال والنساء في آن يعرضون عليها مشكلاتهم، يستشيرونها بها ويأخذون برأيها ونصحها فيها.

ومن المجالس أيضاً: مجالس القيان، وهي مجالس غنائية جاءت نتيجة لاحتراف المرأة الأمة فن الغناء، وقد انتشرت هذه المجالس في قصور ملوك المناذرة والغساسنة، وفي بيوت

السادة والأشراف، وفي الحانات ودور اللهو العامة، وفي خيمة العربي في البادية، إضافة إلى قيان الشعراء الخاصة بهم. وكان القيان في جميع مجالسهم يتوفرون على تلهية سامعيهم وإطرابهم، وإمتاع ندمائهم وأصحابهم بما كنّ يعرضن من عذوبة اللحن وفتنة الجسد.

وكذلك في المجالس: مجالس البغايا، وهي مجالس الإماء الفاجرات، وقد كان الشعراء أصحاب المتعة واللذة يأتون للزنا واللهو بهن، وكان الأعشى خير من وصف هذه الطبقة الفاجرة في شعره وأكثرهم حديثاً عنها.

أما مجالس المرأة فقد توزعت مجالسها معهن بين مجالس حزينة وأخرى فرحة وثالثة دينية.

وتحدث الفصل الثاني عن حديث المرأة، فأشار إلى أنواع الحديث وموضوعاته عند المرأة في العصر الجاهلي، فقد كانت المرأة تتحدث إلى الرجال والنساء بأنواع متعددة من الأحاديث وتجاوزهم في الكثير من الموضوعات، وكان من أنواع الحديث التي عرضت لها: ما كان في الوعد، والدعاء في الخير والشر، والمشورة في الكثير من الأمور، والنهي عن أمور أخرى، والشكوى، والوصية للأبناء في الحرب والبنات عند الهداء، والسؤال عن أحوال الشاعر ونسبه، والتفجع على المصاب والتعزية به، وفي لوم الرجل على الكرم وتبذير المال وعلى فقره وسوء حاله وعلى فراره من الحرب وغير ذلك من الأمور، وفي العتاب والسخرية من كثير من الأشياء التي كانت لا تعجبها فيه، وفي العيب بالشيب والكبر، يضاف إلى ذلك أنواع الحوار التي حاورت بها المرأة الشاعر الجاهلي، فقد حاورته في الوصال والهجر، وفي الرحلة والطوف في الآفاق، وفي همومه ومشاغله، وفي الفخر، وفي الزواج، وحاورت الزوجة زوجها في السعي إلى الغنى، وفي خلافاتهما العائلية، وناظرته في بعض الأمور التي أنكرها زوجها في ابنها...

وكان لحديث المرأة صدئ في نفس الشاعر وخياله وأثر في مشاعره، وقد عبّر عن ذلك كله في شعره فوصف حديث المرأة أوصافاً كثيرة، فذكر حديثها الرقيق واللذيذ والحسن

واللطيف والرخيم والسهل، وحلاوة حديثها، وحديثها الحلال الذي لا ريبه فيه، وذكر تدللها وموانستها له بالكلام الرقيق، وأشار إلى جودة منطقها واتزان عقلها، وذكر كذلك حديثها المخادع وحديثها الخشن وهذرها.

وقد اتصفت علاقة الشاعر بالمرأة - من خلال أنواع الحوار التي ذكرتها - بالموّدة والمشاركة والوجدانية، فهي تشعر بهوموم ومشاغله، وتخشى عليه الهلاك من مخاطر الطريق والسفر، وتحاوره وتناقشه في زواجها. كما اتصفت علاقتها بها بكثير من العنف والنزاع، فقد كان بعض النساء تسيء إلى زوجها وتقسو في معاملتها له، وكان بعضهن على نزاع مع الحبيب بسبب الخلاف القائم بين الأسر على الأرض.

وبعد أن انتهى الباب الأول عقد الباب الثاني لزينة المرأة وملابسها، فتحدث في الفصل الأول منه عن زينة المرأة، فابتدأ بعرض أقوال بعض العلماء والمفسرين في تعريف الزينة، ودعم بعض الآراء بالمعنى اللغوي للفظ الزينة في المعاجم، وبالمعنى الغالب عليها في كلام العرب وأشعارهم وفي القرآن الكريم. وخلص من ذلك كله إلى أن الزينة هي ما تتزين به المرأة من الأشياء ليست من أصل خلقتها تحاول بها تحسين هذه الخلقة بالتصنع، وبذلك يدخل في هذا التعريف: زينة الحلي، وزينة الطيب والأصباغ كالكلل والخضاب والحناء، وزينة الثياب. ثم تناول الحديث هذه الأنواع من الزينة عند المرأة الجاهلية فذكر في زينة الحلي أن المرأة اتخذت من المعادن والأحجار الكريمة ومن حيوانات البحر، ومن الخرز وعظام بعض الحيوانات، ومن ثمار النباتات والأزهار حلياً تزيد بها المواضع البارزة من جسدها، فاتخذت للرأس: الإكليل، وللأذن: الأقراط، وللجيد: العقود والقلائد، وقد كانت عقودها تتدلى على صدرها بأنواع متعددة من الخيوط منها، السلك والنظام، واتخذت للعضد: الدمالج، وللمغصم: الأسوارة، ولأصابع يديها: الخواتيم والفتخ، ولكشحتها: الوشاح والبريم، ولساق قدمها: الخلاخيل.

وذكر في زينة الطيب والعطور والدهون أن المرأة استغادت من الأزهار والنباتات والأشجار، ومن بعض الدوبيات ومن حيوانات البحر في تكوين أنواع كثيرة من الطيب والعطور، وقد كان بعض عطورها سائلاً وبعضه صلباً، وكان لها طيب يختلف عن طيب الرجال أحياناً، ولها من العطور ما ليس لهم. وأشار إلى أنها كانت تحرص على تطيب جسدها وتعطير ملابسها وفراشها وبيتها بأنواع من الطيب والعطور، منها: المسك والزعفران والورس والعبير والخلوق والعنبر والكافور والريحان والزنبق... ومنها ما كانت تغسل به يديها كالرحض، أو رأسها كالغسلة والخطمي، أو تمشط به شعرها كماء السنر وماء الأس والمرنقوش.

ومن أنواع عطور المرأة الجاهلية أيضاً أعواد كثيرة من البخور ذي الرائحة الزكية، كانت المرأة تستجمر بها في المجمر وتدخن بها جسدها وثيابها، منها: العود أو العود الهندي والغار والألوة والبلنجوج والكباء والقصب والرند.

ومن الطيب أنواع الدهون التي استعملتها المرأة في تدهين شعرها حرصاً منها على طراوته ولينه.

وذكر في زينة الخضاب والوشم أن المرأة كانت تخضب بالحناء أصابع يديها وكفيها، كما كانت تخضب شعرها به لتخفي الشيب منه، وقد رسمت بالحناء خطوطاً على أصابع يديها منها المسير أي المخطط.

أما الوشم فهو ما تجعله المرأة على ظهر كفها ومعصمها بالإبرة ثم تحشوه بالنؤور، وقد اعتنت المرأة الجاهلية عناية كبيرة بشكل الوشم على جسدها، وأحضرت لذلك الواشحات المعروفات ليقرن على وشمها وتزيينها، واستعملت في الوشم مواد مختلفة منها النؤور والكحل والإثمد، ووشمت بها يديها وذراعها ولنتها بأنواع من الوشم، منها: الوشم المقرح والمكرس والمنكوس ورجع الوشم والكف في الوشم...

وختم الفصل بالحديث عن مظاهر الزينة عند المرأة الجاهلية، وقد أجمل هذه المظاهر في خمسة أولها: اعتناء المرأة بطلاء أظفارها بالحُمرة. وثانيها: اعتناؤها بجمال وجهها بطلاء بشرتها بالمساحيق الملونة. وثالثها: تسوية حاجبيها بتحديدهما وحذف زوائد الشعر منهما. ورابعها: اعتناؤها بجمال أسنانها ونظافتها بأشهرها وتقليمها واستعمال المساويك المختلفة. وخامسها: اعتناؤها بزينة شعرها بتسريحه وتصفيفه تصفيفات كثيرة كالنوقلية والعقاص والعقل والمُعكف.

وألحق بمظاهر الزينة الأدوات المختلفة التي استعملتها المرأة في تزيين نفسها، منها: أوعية حفت الطيب والحلي كالأصداق والبالة والجؤنة والحقة، ومنها: أدوات سحق الطيب كمداك الطيب وصلابة الطيب، ومنها: أدوات زينة الوجه والعينين والشعر كالمرآة والمكحلة والجذ والأمشاط.

وتحدث الفصل الأخير من البحث عن ملابس المرأة، فابتدأ بالمواد الخام التي شاعت في العصر الجاهلي والتي اتخذت منها المرأة ثيابها، وهي: الصوف والقطن والكتان والحرير والوبر. ثم تحدث عن أنواع الملابس عند المرأة الجاهلية وقد قسم هذه الأنواع أربعة أقسام، هي لباس الرأس والوجه، ولباس الجسد، ولباس اليد، ولباس القدم. وتحدث في لباس الرأس والوجه عن أنواع الأغطية التي غطت بها المرأة رأسها ووجهها من مثل الأخمرة والأقنعة والبراقع والنقُب، وعن الحالات التي تضطر فيها إلى أن تخرج سافرة حاسرة عن رأسها ووجهها، من مثل الفجيعة بموت إنسان عزيز عليها كزوجها، وفي الأحزان كالمآتم والنواح... وغيرها.

وأشار في لباس الجسد عند المرأة إلى ثيابها، وكان من أنواع ثيابها: ثياب نسبت إلى مدن وقرى عربية وأخرى فارسية كالسحولية والقسيّة والميسناني والسابري، وثياب تلبسها على البدن مباشرة في أوقات الخلوة والتبذل كالشعار والمُجسد، والثياب الرقاق كالسبب والشف والثياب الكثيفة كالخيش، والثياب الموشاة والمخططة كالعقم والرّمم والوصائل، وثياب ناعمة الملمس كالباغز والفرند، والثياب المخيطة كاللفاق والجباب، والثياب القصيرة كالمقطعات،

وثياب النوم كالفُضلة، والثياب الخُلقان كالرديم والأسمال والطُمُر، والثياب التي تمتنعها المرأة في البيت وفي العمل كالْمِيذَل والمِفْضَل، وثياب المآتم والأحزان كالصُّدار والسُّلاب، والثياب التي تخلعها عنها إذا طافت بالبيت كاللُقى والحريم، وثياب الطواف حول البيت كالذُّرع المفرُج والسُّيُور والرُّهط والتطواف.

ومن ملابس المرأة التي عرضت لها أيضاً: البرُود الموشاة والمخططة كالْيَمَنَة والمرجل والمرجل والمرحّل والمرئش والحَبَرَة والخال والشرعية والجياشنية والنمرة... والقُمُص كالذُّرع والسُّبْحَة والمِجْوَل. والأكسية كالبيجاد والخَمِيصَة والمِرْط. والملاحف كاللِّفَاع والرداء والعِطاف والجلباب. والسراويلات كالنُّبَّان والنَّقْبَة الوَثَر. والثياب التي تشدها على وسط جسدها كالْحِقَاب والزنار والمنطِق أو النُّطَاق. والثياب التي تعظم بها عجزتها كالْجُلُس. والخِرَق التي تمسكها عند النُّوح كالْمَثَلَة والمِجْلَدَة، وخِرَق الحيض كالْمَقَارِم.

وأشير في لباس اليد إلى القَفَازَيْن والعِصَاب، وفي لباس القدم إلى النعلين، وقد اشتهر من نعال المرأة نعال السُّبُت.

وبعد أن انتهت من الحديث عن ملابس المرأة ذكرت الملابس المتنازع عليها بين الرجل والمرأة، وهي الملابس التي ذُكرت في الشعر الجاهلي في هيئة عامة كالآخني والبرِيطِيَاء والدُّخْدَار والذَّيَابُودُ...

والحق بملابس المرأة الجاهلية الأصباغ التي كانت تصبغ بها ثيابها كالزعفران والجِساد والأرجوان، والأدوات التي تحفظ بها ملابسها أو تعلقها عليه كالصُّوان والعَيَّية والقارورة والمِشْنَجَب.

ويتلو هذه الفصول ملحق وهو معجم بألفاظ الزينة والملابس التي وردت في هذا البحث مرتبة ترتيباً هجائياً، ثم الخاتمة وقد ذكرت فيها أبرز النقاط التي وردت في هذه الدراسة، والنتائج التي توصلت إليها. وينتهي البحث بثبت بالمصادر والمراجع التي تم الرجوع إليها مرتبة ترتيباً هجائياً أيضاً.